كيف تربت الجماعة الأولى (١)

الأخ محمد قطب

الجماعة الأولى هي الجماعة التي رباها الرسول ﷺ على عينه ، ومنحها كل جهده ورعايته وتوجيهــه ، والــتي اجتمعت لها عناصر التربية الإسلاميّة بكل تمامها ، على يد أعظم مربٍ في التاريخ .

وإنها لهي المقصودة أولاً بقوله تعالى :

﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّــهِ** ... ﴾ [آل عمــران : ١١٠]

ولقد كانت خير أمة في تاريخ البشرية كله . وحوت من ألوان العظمة في كل اتجاه ما لم يجتمع لأمة أخــرى في التاريخ بهذه الوفرة وذلك التعدد وتلك الآفاق : عظمات حربية وعظمات سياسية وإدارية وعظمات نفسية وعظمات روحية .. عظمات من كل نوع ، وفي فترة وجيزة من عمر الزمن كأنها لحظات !

وتلك الأمة هي التي وضعت أسس التاريخ الإسلاميّ المقبل كله ورسّخت قواعده في الأرض ، بما قــدمت مــن مبادئ وقيم ومثل عليا مطبقة في عالم الواقع بصورة فريدة في التاريخ ، صورة يلتقي فيها المثال والواقع ، فلا تكــاد تعرف من روعة العظمة المذهلة أيهما الواقع وأيهما المثال !

ولقد كان ذلك كله هو الثمرة الجنية للتربية الإسلاميّة في أعلى صورها ، على يد أعظم مربٍ في التاريخ .

وإذا كان الواقع التاريخي الإسلاميّ لم يشهد تكرار ذلك النموذج الرفيع بصورته تلك إلاّ في نماذج فردية علــى مدار الأجيال ، بينما كانت تلك النماذج محتشدة في الجماعة الأولى احتشاداً فذاً جعل المؤرخين الأوائل يشيرون إلى معظمها مجرد إشارة عابرة ، كأنما هي ظاهرة عامة لا تحتاج إلى إشادة ولا حديث خاص ! .. فستظل هذه الجماعــة على الرغم من ذلك هي النموذج الذي تتطلع إليه الأجيال وتحاول أن تعيده في عالم الواقع .. فــإن أفلحــت في أي جيل أو أي قرن ، فهو الخير للبشرية كلها بغير نزاع . وإلاّ فالمحاولة في ذاتها خير ، لأنها سترفع كل إنسان إلى أقصى حدود طاقته الذاتية ، فلا تظل في نفسه فضلة من خير محبوسة عن العمل أو محجوزة عن النماء .

وهكذا تظل القدوة قائمة في جماعة الرسول ﷺ ، وإن لم يتكرر مثالها على مدى التاريخ .

ونحن مطالبون بدراسة وافية لتلك الجماعة الأولى تفسر لنا أسرار عظمتها ، وبلوغها ما بلغت إليه من قمم شامخة في كل مجال خاضته فهي –قبل كل شيء– جماعة من البشر . بل جماعة من البشر من أمة كانت غارقة في الجاهليــة إلى أذنيها ، وقاومت دعوة الخير مقاومة عنيدة لأنهم قوم لدّ الخصومة كما وصفهم القرآن :

﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا** ﴾ [مريم : ٩٧]

﴿ ... **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ [الزخرف : ٥٨]

فكيف استطاعت جماعة بهذا الوصف أن تصل إلى تلك الآفاق ؟! وما العناصر التي تكونت منها تلــك العظمــة الفائقة ؟ وهل هي عناصر (طبيعية) بشرية ، أم إنّ فيها عنصراً خارقاً غير قابل للتكرار ؟!

وماذا نملك نحن –ونحن جماعة من البشر كذلك– ماذا نملك من العناصر التي كونت هذه الأمة ، وماذا نفتقــد ، لنعلم المدى المتوقع لنا من النجاح أو الفشل في بلوغ الغاية التي نريد ؟

تلك الدراسة الوافية ضرورية لنا ضرورة كاملة ونحن نحاول تجميع عناصر التربية الإسلاميّة ، فتلك الجماعة هــي التي طبَّقت أو طُبِّقت فيها التربية الإسلاميّة بتمامها كله ، فلن نجد إذن خيراً منها لتجميع العناصر المطلوبة ، ولن نجد خيراً منها صورةً تطبيقية لهذه العناصر . وذلك أمر له أهمية مضاعفة ، فليس يكفي –في أمور التربيــة– أن نعــرف العنصر ذاته في صورته النظرية المجردة ، إنما يفيدنا كثيراً أن نراه مطبقاً بالفعل ، ويفيدنا أكثر أن نراه مطبقاً في أعلــى صوره . لأن ذلك يعطينا فكرة عملية عن المدى الذي يمكن أن يبلغ إليه كل عنصر من هذه العناصر ، لنفيس جهدنا إليه في كل مرة ، ونحاول المزيد !

إنك حين تشرح لدارس النبات أو الحيوان طريقة استنباته أو تربيته ، تشفع ذلك بعرض نماذج واقعية من ذلــك النبات أو الحيوان وتختار –من بين ما تختار ، أو في مقدمة ما تختار– النماذج الفائقة ، لتعطي الدارس فكرة عن المدى الذي يمكن أن يصل إليه ، والذي ينبغي عليه أن يحاوله ، ثم تشرح له في الوقت ذاته عناصر التفوق في ذلك النموذج ليحاول استكمالها في تجاربه الخاصة .

وفي عالم الإنسان كذلك ..

ينبغي أن نستعرض النماذج الفائقة ونبحث سر تفوقها ، لنعلم المدى الممكن ، ونحاول الوصول .

وعناصر التربية في الجماعة الأولى هي كتاب الله وسنة رسوله .. مضافاً إليها شخص الرسول ﷺ حاضراً بنفــسه في ذلك المجتمع ، وقائماً بتعهد هذه الجماعة بذاته الكريمة .

فأما كتاب الله وسنة رسوله فهما حاضران أبداً ، باقيان أبداً إلى قيام الساعة ، تكفل الله بحفظهما ، ليحفظ بهما هذا الدين :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]

وكذلك حفظت لنا سنة الرسول ﷺ مدوّنة ومفصّلة أدق تفصيل ، وقام علماء المسلمين بتمحيص الدخيل عليها فنبذوه ، وبينوا بجهدهم العلمي الفذ درجات الحديث من الصحة إلى الوضع ، وما يؤخذ به وما لا يؤخذ به في كــل مجال من الفقه والتشريع إلى مكارم الأخلاق

وأما شخص الرسول ﷺ فهو العنصر الزائد الذي لم يتكرر في أي جيل آخر . ولكن لدينا سيرة مفصلة لحياته ﷺ كأنه حيّ بين ظهرانينا . بل إنه –لفرط عظمته ﷺ– يعيش في وجدان المسلمين أبداً ، بل في حس البشرية كلها حتى غير المسلمين منها ، الذين يقرؤون سيرته ويتأثرون بعظمته .. حتى الحاقدون منهم لا ينكرون أنه عظيم !

ومع ذلك فلئن كان وجوده بشخصه ﷺ ، وتعهده الجماعة الأولى بذاته الكريمة ، وهو مربٍ لا يتكرر في التاريخ ، لئن كان ذلك عنصراً رائداً أثّر في التكوين الفريد لهذه الجماعة ، بحيث لم تتكرر بصورتها الفائقة مرة ثانية ، فــإن وجوده ﷺ بشخصه ليس شرطاً لقيام المجتمع المسلم في صورته العادية ولا تطبيق التربية الإسلاميّة علــى مــستواها العادي . وإلاّ فلو كان ذلك شرطاً لما فرض الله على المسلمين إقامة المجتمع المسلم ولا تطبيق التربية الإسلاميّة وهــو يعلم –سبحانه– أن الرسول ﷺ لن يخلد في الأرض ! ثم إنّ مجتمع التابعين –وهو جزء من الفترة الفائقــة في تــاريخ الإسلام– لم يشهد الرسول ﷺ ، وإنما سمع سيرته كما نقرؤها أو نسمعها نحن اليوم ، ومع ذلك كان فيه ذات التفوق ، وكان يمارس التربية الإسلاميّة على مستواها الرفيع .

عنصر آخر ربما كان من عناصر التفوق الرائع لذلك المجتمع الأول ، لم يتكرر في بقية التاريخ .. ذلك هو عنــصر (الجدة) .. فكل حركة جديدة تكون أنشط في تكوّنها وأبلغ في حركتها من الأجيال التي تخلفها . لأنها تمارس البنــاء درجة درجة وخطوة خطوة ، سواء البناء الداخلي النفسي أو البناء الاجتماعي الخارجي ، وتبذل الجهد في كل خطوة وكل حركة ، فتكون حريصة على البناء ، حريصة على صيانته من كل خدش أو تشويه . أما الخلوف التي تخلف من بعد ذلك فهي (ترث) البناء وراثة ، فتكون أقل حرصاً عليه ، ويظل الأمر يتدرج في النــزول حتى يأتي الخَلْفُ الذي يصفه القرآن :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَــرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْــرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٩]

وفي الطبيعة أمثلة معروفة تشبه ما يحدث في عالم الإنسان . فالأكسجين المحضّر حديثاً أنشط مـــن الأكـــسجين الموجود في الجو مع أنه من ذات الطبيعة وذات التركيب ! لمجرد أنه جديد ! فإذا مرت عليه فترة صار أكسجيناً عادياً لا مزية له على مثيله في الجو !

وهذه الظاهرة يمكن أن تفسر لنا خط الانحراف التدريجي المتزايد في تاريخ الإسلام ، كما يمكن أن تفسر لنا إشارة الرسول ﷺ إلى الأجيال التالية من بعده :

« **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** .. » أخرجه الشيخان

ولكن هذا العنصر بالذات هو اليوم في صالحنا ، كما لم قط من قبل !

لقد دار الزمن دورته وعاد الإسلام غريباً كما بدأ ، كما تنبأ رسول الله ﷺ :

« **بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ** » رواه مسلم

وما دام قد عاد غريباً كما بدأ ، فستبدأ إذن جولة **جديدة** .. جديدة تماماً ، كالجولة الأولى ، أو أقرب شيء إليها .. وسيتوفر لها عنصر الجدة كما لم يتوفر من قبل ، وسيكون حافزاً لها على بلوغ القمة كما لم يحدث من قبل !

وإذن فبين أيدينا من عناصر التربية الإسلاميّة الدائمة والعارضة ما يجعلنا نتوقع ميلاداً جديداً لجماعة إســـلامية ، ميلاداً فائق التكوين .

وحين ندرس حياة تلك الجماعة المسلمة الأولى فينبغي أن نبدأ دراستنا من الجاهلية لنعرف ما دخل عليهـــا مـــن تعديل أو تغيير بتأثير التربية الإسلاميّة ، وهل هو تغيير ظاهري أم جذري . وهل هو مجرد تعديل أم نـــشأة جديـــدة ومولد جديد .

وكتب التاريخ الحديثة التي بين أيدينا لا تعطينا صورة حقيقية للجاهلية ، إما جهلاً منها بحقيقة الجاهليـــة وإمـــا تحريفاً لغاية في نفوس واضعيها[1] .. فلنأخذ دراستنا من المصدر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـــه .. من كتاب الله

وحين نتتبع المواضع التي ذكرت فيها (الجاهلية) أو مشتقاتها أو مرادفاتها (الذين "لا يعلمون") فسنجد أنها جاءت كلها في معنى من معنيين ، يشكلان معاً حقيقة الجاهلية ، وهما : الجهل بحقيقة الألوهية ، والجهل بما ينبغي تجـــاه الله سبحانه من العبودية ، أو بعبارة أخرى مخالفة منهج الله ، والحكم بغير ما أنزل الله .

تلك إذن هي الجاهلية : إشراك بالله في الاعتقاد ، أو إشراك بالله في الاتباع ، أو هما معاً في ذات الوقت .

﴿ أَجَعَلَ الآَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص : ٥]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آَبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ [النحل : ٣٥]

أما عبادة الأصنام ، ووأد البنات ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وغارات السلب والنهب .. وهي التي توصف في كتب التاريخ الحديثة بأنها هي الجاهلية فهي مجرد **مظاهر** للجاهلية ، قد توجد أو لا توجد ، أو يوجد غيرها ممـــا لا يمت بصلة إليها ، وتكون الجاهلية قائمة رغم ذلك ! فعبادة الأصنام الحسية هو طور من أطوار البشرية الـــضالة قـــد ينتهي في أية لحظة . ولكن الذي لا ينتهي من الجاهلية أبداً هو عبادة الأوثان ، أو الجبت والطاغوت كما يعبر القرآن ، وهي كل عرف أو شيء أو شخص أو وضع أو شرع أو سلطة تستعبد الإنسان بغير إذن من الله ، وتطلـــب مـــن الناس –أو يمارس الناس– الطاعة لها مخالفين بطاعتها أوامر الله .

وعبادة الجبت والطاغوت –في شكل من أشكالها– كانت قائمة في الجاهلية العربية وهي جوهرها –وجوهر كل جاهلية– الذي يعطيها صفة الجاهلية . أما الأشياء الأخرى فليست في ذاتها هي الجاهلية . إنما هـــي مجـــرد مظـــاهر للجاهلية العربية بصفة خاصة ، و لم تكن قائمة بصورتها تلك في جاهليات أخرى . ومن المؤكد أن كثيراً منها لـــيس قائماً في جاهلية القرن العشرين .. وهي مع ذلك جاهلية !

يهمنا على أي حال أن ندرس هذه المظاهر ، لنعلم كيف فعل منهج التربية الإسلاميّة في إزالتها ، لنعرف طريقته العامة في إزالة انحرافات الفطرة لكي نستخدمها في إزالة انحرافات المجتمع الحالي ، ولو خالفت انحرافات المجتمع العربي الجاهلي في تفصيلاتها .

نعم . يهمنا أن ندرس مظاهر الجاهلية العربية تفصيلاً لنعرف طريقة علاجها في المنهج الرباني .. ولكن ينبغـــي أن نجعل طريقة علاجها في المنهج الرباني .. ولكن ينبغي أن نجعل في بالنا أنها مجرد مظاهر . وأن الجوهر الحقيقي للجاهلية هو عبادة الجبت والطاغوت .. هو الجهل بحقيقة الألوهية ، ورفض إخلاص العبودية لله ، بما يستتبعه حتماً من اتخـــاذ مناهج غير منهج الله ، وعدم التحاكم إلى ما أنزل الله !

وكان العرب كذلك لا يؤمنون في جاهليتهم باليوم الآخر ، ويتعجبون من هذا الأمر ويعجّبون به :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيـــدٍ ۞ أَفْتَـــرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ... ﴾ [سبأ : ٧-٨]

وكان من آثار ذلك في حياتهم ما لا بد أن يكون في كل جاهلية لا تؤمن باليوم الآخر : الإحساس بقصر الحياة ، وأنها فرصة وحيدة إن لم يهتبلها الإنسان فقد فاتته بغير رجعة ، فينكب على الملذات لا يبالي الحرام منها وغير الحرام .. أو ترخص في حسه الحياة فيستهتر بها .. وقد يجتمعان معاً كما في بيت طرفة بن العبد :

ألا أيهـــذا اللائمـــي أحـــضر الـــوغى وأن أشهد اللـــذات .. هـــل أنـــت مخلـــدي ؟!

وكانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي يتعايش بها سكان الجزيرة ويتحركون من خلالهـــا ، ســـلماً وحربـــاً وتعاقداً وتعاهداً وبيعاً وشراءً وتجارة .. ولكن القبيلة كان تضغط ضغطاً شديداً على كيان الفرد فينسحق تحت ثقلها وتنمحي شخصيته في شخصية القبيلة فيصبح كما يقول الشاعر :

وهـــل أنـــا إلاّ مـــن غزيـــة ؟! إن غـــوت غويـــــت ! وإن ترشـــــد غزيـــــة أرشـــــد !

وكانت أعنف عقوبة تفرضها القبيلة على الفرد هي (خلعه) منها فيصبح (خليعاً) مشرداً لا كيان له ولا وجود!

وكان عرف الآباء والأجداد قوة ساحقة كذلك لا يستطيع أحد الفكاك منها كما عبر القرآن :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَـــيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠]

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢]

وكان مجتمعاً تحكمه القوة -ككل مجتمع جاهلي- من يملك القوة يحكم ، ومن لا يملكها يُحكم عليه ؟! :

ومـــن لم يـــذد عـــن حوضـــه بـــسلاحه يهـــدّم ! ومـــن لا يَظلـــم النـــاسَ يُظلـــم !

فالطريقة الوحيدة لدفع الظلم هي البدء بالظلم ؛ ومن هنا كانت الغارات الدائمة بينهم والعدوان المستمر ، والثأر ، وكانت الحمية التي يصفها القرآن :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ... ﴾ [الفتح : ٢٦]

وكانت الآفاق كلها قريبة كما هي دائماً في كل جاهلية ، محصورة في محيط هذه الأرض ، مـــشغولة بالملـــذات الحسية ، أو بما يؤثر في المكانة الاجتماعية علواً وسفلاً ، من أموال وبنين ، أو ذكرٍ حسن أو ذكر قبيح :

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٥]

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَــاءَ النَّاسِ ... ﴾ [النساء : ٣٨]

بل لم يكونوا حتى مشغولين بما كان يشغل بعض الجاهليات الأخرى من علم وتقدم مادي ، كالجاهليات اليونانية والجاهلية الرومانية والجاهلية الفرعونية .. إنما كان أشد ما يشغلهم هو قول الشعر وحفــظ الأنــساب ! والتفــاخر والتهاجي بمعارك السلب والنهب والأحساب والأنساب ! إلى جانب المشغلة بالحياة

لقد كانت تستعبدهم في الحقيقة أرباب أربعة أو فئات أربعة من الأرباب في آن واحد : ربوبية الأصنام المعبــودة والجن والملائكة وغيرها من المعبودات . وربوبية القبيلة . وربوبية العرف الموروث من الآباء والأجــداد . وربوبيــة الهوى والشهوات . هذا إلى جانب العبادة النظرية لله ، والمعرفة النظرية بأنه خالق الكون والحياة ..

ومن هناك انتشلهم الإسلام .. ليحررهم من عبادة الأرباب إلى عبادة رب الأرباب . ومن عبادة بعضهم بعــضاً إلى عبادة الله الواحد بلا شريك . ومن عبادة الجبت والطاغوت إلى عبادة الإله الرحيم الكريم الذي يكرم عبــاده ولا يهين بشريتهم وهو الذي كرمها وفضلها ، وجعل من الإنسان خليفته في الأرض ..

وليحررهم من الانحصار في الحياة الدنيا إلى الصورة الأكثر علواً وإشراقاً وامتداداً وفسحة .. الدنيا والآخــرة في عقيدة واحدة وفي نظام واحد .

ويحررهم من ظلم بعضهم بعضاً إلى عدالة الله الحكم العدل ، بتحريرهم من شرائع البشر ومناهجهم إلى شــريعة الله ومنهجه يخضع لها الجميع في وقت واحد وبدرجة واحدة ..

جاء لينشئهم من جديد .. في مولد جديد للإنسان ..

كيف صنع الإسلام بهم ما صنع في تلك الفترة الوجيزة ؟

إنّ الفارق بين حالهم في الجاهلية وحالهم في الإسلام هو ولا شك حصيلة التربية الإسلاميّة التي ربــاهم عليهــا رسول الله ﷺ على منهج القرآن وبوحي تعاليمه .

ولقد كانت لهم ولا شك في الجاهلية فضائل . ولا تخلو أي جاهلية في التاريخ من بعض الفضائل ، فإن الــنفس البشرية حتى في أسوأ أحوالها لا تتمخض للشر ! ولكن الجاهلية لا تترك تلك الفضائل على حالتها الفطرية وإنما تلتوي بها فتحولها عن وجهتها . كما حولت الجاهلية العربية فضيلة الكرم إلى المفاخرة وإنفاق المال (رئاء الناس) كما يعــبر القرآن . أما حين لا يكون هناك مجال للمفاخرة وتحدث الركبان فهم كما حدث عنهم القرآن :

﴿ كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر : ١٧-١٨]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [يس : ٤٧]

وكما حولت فضيلة الشجاعة والاستعداد لبذل النفس فيما هو أكبر من كيان الفرد ، إلى غارات السلب والنهب والعدوان المستمر على الآخرين والحمية الجاهلية التي تندفع إلى القتال دون تعلم -أو تسأل- في حق هو أم في باطل !

ومن هذه العجينة المشوهة بفضائلها ورذائلها ، صاغ الإسلام أروع نماذج البشرية في التاريخ كله . صاغ الأمـــة التي وصفها خالقها -سبحانه- بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ [آل عمران : ١١٠]

فبأي وسيلة صنع الإسلام ذلك ؟ وهل هي وسيلة متاحة في كل وقت ، كلما جربت وحيثمـــا جربـــت تـــؤتي ثمارها ، أم أنّ هناك مناخاً معيناً هو الذي أثمر تلك الثمرة العجينة ، وينبغي توفيره في كل مرة لتنتج الوسيلة نتيجتها ؟

لقد بدأ الإسلام بتصحيح العقيدة في الله .

والمتتبع للقرآن المكي يجد أن هناك موضوعاً واحداً هو الغالب على هذا القرآن كله ، هو موضوع العقيدة .

وحين نقول (العقيدة) فإننا نقصد بطبيعة الحال (العقيدة الصحيحة) . وإلاّ فإن اعتقاد الإنسان بوجود إله مـــسألة فطرية لا تحتاج إلى نبي ولا رسول ! واتجاه الفطرة البشرية إلى خالقها بلون من ألوان العبادة مسألة فطرية كـــذلك لا تحتاج إلى نبي ولا رسول[٢] ! إنما الذي يحتاج دائماً إلى الأنبياء والرسل هو تصحيح العقيدة . فإن الفطرة -إذا تركت وشأنها- كثيراً ما تضل ، فتتصور الله على غير حقيقته ، وتشرك معه آلهة أخرى ، وتتقدم له نتيجة لـــذلك بعبـــادة مشوهة ، ليست هي ما يفرضه الله . فيجيء الأنبياء والرسل ليردوا الفطرة إلى سلامتها ويعطوها الدين القـــيم علـــى حقيقته الربانية :

﴿ ... فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ... ﴾ [الروم : ٣٠]

وكما جاء كل نبي من قبل ليقول للناس : (لا إله إلاّ الله) ، ﴿ ... اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِـــنْ إِلَـــهٍ غَيْـــرُهُ ... ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، فكذلك جاء رسول الله ﷺ ليقول نفس المقولة الخالدة التي تمثل الحقيقة الأزلية : (لا إله إلاّ الله) ويطلب من الناس أن يعبدوه وحده دون شريك .

والقرآن المكي كما قلنا لا يتناول إلاّ موضوع هذه العقيدة بكل ما يسلتزمه الحديث فيها من تفصيلات . فينبغي أن نعلم من ذلك أن هذا هو حجر الأساس في التربية الإسلاميّة كلها ، وفي الحياة الإسلامية كلها كذلك .

وهنا ينبغي لنا أن نقف وقفة عند ظاهرة ذات دلالة :

ألم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الله ؟ ويعرفون أنه الخالق ؟ وأنه المدبر ؟ وأن بيده ملكوت كل شيء ؟ وأنه يجير ولا يجار عليه ؟

بلى ! لقد سجل عليهم القرآن علمهم بذلك كله :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [لقمان : ٢٥]

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [الزخرف : ٨٧]

فكيف إذن سماهم القرآن (الذين لا يعلمون) ؟ ولماذا بدأ معهم درس العقيدة من نقطة الصفر . بل بـــدأ بـــذات المعلومات التي سجل على العرب علمهم بها –ثم ألغاه من الحساب !– أنه هو سبحانه خالق الـــسموات والأرض ، وخالق الناس ، وأنه المدبر ، وأن بيده ملكوت كل شيء ، وأنه يجير ولا يجار عليه !!

هذا أمر له دلالة ينبغي أن نتبينها ونحن بصدد الحديث عن منهج التربية الإسلاميّة لكي لا تفوتنا هذه الدلالة .

لا بد أن يكون (العلم) الذي يتطلبه الإسلام بالألوهية نوعاً آخر غير العلم الذي كان في الجاهلية ، الذي أثبتـــه القرآن عليهم ثم نفاه ، ووصف أصحابه بأنهم (الذين لا يعلمون) . ثم حين بدأ يعلمهم حقيقة الألوهيـــة لم يأخـــذ علمهم السابق رصيداً يبني عليه ويكمّل ما كان ينقصه أو يصحح ما فيه من خطأ . بل اعتبره غير موجود البتة ، لأنه بدأ بذات المعلومات في تفصيل شديد جداً يوحي بأنه يستنبتها في قلوبهم استنباتاً جديداً ولا ينمي ما كان موجـــوداً منها بالفعل من قبل ..

ما الفرق إذن بين أن يعرف العرب في الجاهلية أن الله هو الخالق ، الذي خلقهم وخلق السموات والأرض ، وبين أن يعرفوا في الإسلام أن الله هو الخالق ، الذي خلقهم وخلق السموات والأرض ؟!

الفارق في الحقيقة هو في (نوع المعرفة) وليس في (المعلومات) !

حقيقة إنّ معلوماتهم عن الله في الجاهلية كانت مشوهة وناقصة . فقد كانوا يستكثرون على قدرته –سبحانه– أن يحيي الموتى ويبعثهم من جديد ، وكانت تلك من أعقد مشكلاتهم (الفكرية) في شأن هذا الدين !

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨]

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٧]

﴿ ... وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [هود : ٧]

وكانوا يتصورون أن لله -سبحانه- بنات هنّ الملائكة ..

وكانوا يتصورون أن بنات الله هؤلاء يتشفعن عنده لهم ، وأن لهنّ كلمة عنده سبحانه مجابة !

وكانوا يتصورون أن الأصنام التي يعبدونها تقربهم إلى الله زلفى ، وأنها تعلم الغيب ، فيستشيرونها في الخروج والقعود ، وأنها تضر وتنفع مع الله ، وأنها تبارك الرزق والأولاد حين ترضى ، وتمحقها حين تغضب ، ولذلك كانوا يسترضونها بالقرابين والنذور ..

وكل تلك أخطاء في التصور الاعتقادي ينبغي تصحيحها في نفوسهم لتستقيم عقيدتهم في الله .

ولكن الأمر ذا الدلالة كما قلنا أنه لم يتخذ معلوماتهم (الصحيحة) التي يعرفونها عن الله رصيداً يكمل عليه ، بل بدأ معهم من نقطة الصفر . بل الأكثر دلالة أن هذه المعلومات الصحيحة ذاتها هي التي أكد عليها القرآن تأكيداً شديداً بما يوحي -كما قلنا- أنه يستنبتها من جديد ، من بذرة جديدة تماماً غير البذرة الفاسدة التي كانت قد تعفنت في قلوبهم وصارت غير صالحة الاستنبات .

فما دلالة ذلك على وجه التحديد ؟

دلالة أن المعركة (الذهنية) ليست هي المعرفة التي يريدها أو يعترف بها الإسلام . فإنها معرفة سطحية وميتة ، لا تفعل شيئاً في واقع الحياة ، ولا تؤثر شيئاً في سلوك الإنسان . وإذن فوجودها كعدم وجودها سواء . بل ينبغي أن تنتزع البذرة الفاسدة كلها بما بقي فيها من أجزاء سليمة ، وتستنبت البذرة السوية كلها من جديد .

يؤكد هذه الدلالة ما قرره القرآن بالنسبة للمصريين على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ ... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ [يوسف : ٣٧-٣٨]

والمعروف عن المصريين أنهم كانوا (يعرفون) الآخرة . ويؤمنون بأن هناك بعثاً وثواباً وعقاباً في يوم هائل مروع تصفهم كتبهم وكتاباتهم على جدران المعابد والآثار . ولكن القرآن اعتبر معرفتهم هذه غير موجودة ، واعتبرهم كافرين بالآخرة بذلك التوكيد الذي يعبر عنه أسلوب القرآن : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ، وذلك لأن معرفتهم

النظرية المتوارثة عن الآخرة لم يكن لها وجود حقيقي في واقع حياتهم ، فهم –مع هذه المعرفــة النظريــة– يعبــدون الفرعون من دون الله . ولو كان علمهم بالآخرة حقيقياً وكان يعطي فاعليته الحقيقية ، لعبدوا الله وحده ، صــاحب ذلك الآخر ، و لم يشركوا معه عبادة الفرعون .

المعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة إذن شيء ، والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل بها النفس كلها وتعطي تأثيراً معيناً في السلوك الواقعي شيء آخر ، هي ما يطلبه الإسلام بالذات ، ويستنبته في قلــوب النــاس ليــصبحوا مسلمين .

وبذلك يزول العجب من ذلك الأمر : أن القرآن سجل على العرب معرفتهم بأن الله هو الخالق المدبر ، ثم ألغاها البتة ، وبدأ معهم من جديد !

لا عجب حين نعلم أن المعرفة الأولى ليس لها أثر واقعي في الحياة ، والمعرفة الثانية – الحقيقية– هــي ذات الأثــر البالغ الحاسم في حياة البشرية .

– للكلام صلة –

---

(١) انظر كتاب (منهج للتاريخ الإسلامي) فصل (الجاهلية) .

(٢) الدول الشيوعية الملحدة تبدو استثناءً من هذه القاعدة العامة . ولكن هذه الدول تصادم الفطرة في كثير من شؤونها ولا تتمــشى معها . وهي تكبت (التدين) بالحديد والنار ، فلا تُتخذ دليلاً على عدم عموم الحقيقة التي أشرنا إليها .